نقد العقل عند طه عبدالرحمن وجاك ماريتان

إعداد

جهاد سلامه عبدالرحيم سرايا

أ.د / إبراهيم طلبه سلكها

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة

المستخلص :

ان العقل هو ما يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات فالعقل هو أهم ملكة استطاع الإنسان من خلالها أن يكون أفكاره ويبني حضارته ، فالعقل هو أداة الإنسان في بناء حياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

والعقل هو مجموعة من القوي الإدراكية التي تتضمن الوعي والمعرفة والتفكير وهو الذي يملك القدرة علي التخيل والتمييز والتقدير وهو المسؤول عن معالجة المشاعر والانفعالات مؤديا الي مواقف وأفعال.

والعقل هو الأداة التي نميز بها بين الحق والباطل .

نقد العقل

المقدمة :

أ- طه عبدالرحمن:

ولد طه عبدالرحمن بالمغرب عام 1944م، وهي مدينة شاطئية علي ساحل المحيط الأطلسي ذات طابع سوسيولوجي مركب من البادية لكونها تقع في سهل دكالة، ومن المدار الحضاري الذي حدثت فيه وقائع تاريخية معينة، وهو فيلسوف مغربي تخصص في المنطق وفلسفة اللغة والأخلاق، وهو أبرز أعلام الفكر والفلسفة العربية وكان والده فقيها يدرس الصبيان القران الكريم، والمتون القديمة، ولما علم الفرنسيون بهذا طلبوا منه أن يوقف التعليم لكن أباه لم يتحمل هذا الأمر ووجد فيه منعا لعمل مشروع يخدم علوم الدين واللغة العربية، فألح علي أن يواصل التدريس علي الأقل لأبناء الأسرة، فخضع المستعمر لإلحاحه ، وعين أبوه مدرسا في مدرسة الأعيان واستمر يعلم في البيت القران الكريم والحديث وما تيسر من الفقه(1).

كان والده حريصا علي تكوينه دينيا بالصورة المغربية الأصلية للثقافة الدينية، وهي ثقافة تجمع بين الفقهيات والروحيات، فلم تكتف بحفظ القران والحديث، بل كانت تقوم علي مبدأ التربية علي أخلاق الاسلام حتي نشأ متشبعا بالجانب الفقهي والروحي، وحدث له حادث كان يمثل له دلالة كبيرة كما يقول هو عن نفسه اذ يقول" في صغر سني لما بدأت تعلم حروف الهجاء تأخرت في حفظها فخشي أبي ألا أكون ذلك التلميذ النجيب الذي يريده أن يحفظ القران الكريم في سن مبكر فقال لي في أحد الأيام يا ولدي ستسافر معي، فسافر بي الي مكان لا أتذكر كم يبعد عن المدينة، ولكنه يبدو وكأنه زاوية فأدخلني علي رجل مسن جالس علي انفراد ولابس ثوبا صوف، فسلمنا عليه فقال الشيخ لأبي ترد لابنك أن يتعلم ويقرأ فسيتعلم وسيقرأ بإذن الله ومسح علي رأسي وفرحت بهذا اللقاء كأني تعلمت وقرأت(2).

وطيلة حياته ، شغل طه عبدالرحمن مناصب وعضوية مؤسسات عدة، فقد كان أستاذا زائرا في عدد من الجامعات العربية، كما كان أحد مؤسسي اتحاد كتاب المغرب، وخبيرا في أكاديمية المملكة المغربية، وأستاذا محكما ومستشارا في عدد من المجلات العلمية التي تعني بشؤون الفكر والفلسفة بجانب ذلك، كان نائبا سابقا لرئيس الجمعية الفلسفية العربية، وهو رئيس منتدي الحكمة

---

[1]- ãäÊÕÑ íãÇïÉ: طه عبدالرحمن فيلسوف المنطق والأخلاق ¡ èíÑæÊ¡ áÈäÇä ¡ ÃÝßÇÑ ¡ 2016¡ãÌáÉ Õ 24Õ-25.

[2]- طه عبدالرحمن : الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2013، ص12.

للمفكرين والباحثين، كما يمثل المغرب في جمعية الفلسفة وتواصل الثقافات الألمانية والجمعية العالمية للدراسات الحجاجية التي يقع مقرها بهولندا(1).

ب- جاك ماريتان:

وأما جاك ما ريتان فقد ولد في باريس عام 1882م، وهو فيلسوف فرنسي كاثوليكي معاصر. ولد في باريس كان لا أدريا قبل اعتناقه الكاثوليكية في عام 1906. مؤلف لأكثر من 60 كتابا، ساعد في احياء أفكار توما الأكويني في العصر الحديث، وكان له تأثير في تطوير وصياغة الاعلان العالمي لحقوق الانسان . امتدت اهتمامات جاك ما ريتان وأعماله الي العديد من جوانب الفلسفة، بما في ذلك علم الجمال، والنظرية السياسية، وفلسفة العلوم، والميتافيزيقيا، وطبيعة التعليم، والقداس والكنيسة. التقي في جامعة السوربون برايسا وهي مهاجرة يهودية روسية، وشاعرة صوفية مشهورة، شاركت لتكون شريكته الفكرية في بحثه عن الحقيقة، عاشت شقيقته ، مع جاك وزوجته طوال حياتهما الزوجية تقريبا. وفي جامعة السوربون، جاك ورايسا سرعان ما أحبطا من العلم الذي لم يستطع -من وجهة نظرهما- معالجة القضايا الوجودية الأكبر للحياة. في ضوء هذا الوهم وفي عام 1901 بالتحديد، توصلا إلى اتفاق ألا وهو الانتحار سوية خلال عام في حال عجزهما عن اكتشاف معنى أعمق للحياة. بناءً على طلب تشارلز بيجوي، فلقد جُنبا من متابعة هذا وذلك بحضور محاضرات هنري برجسون في كوليج دو فرانس(2).

أكمل جاك ما ريتان في عام 1910 مساهمته الأولي في الفلسفة الحديثة، مقال يتكون من 28 صفحة بعنوان" العقل والعلوم الحديثة" نشر في مجلة " مراجعة الفلسفة". حذر فيه من أن العلم أصبح اليوم إلاها، يغتصب منهجه دور العقل والفلسفة، أما بالنسبة للفلسفة التو مائية فيقول ما ريتان" أن التومائية تري أن حياة العقل ينظر اليها من جانبها العقلي الخالص والاستنباطي ومن وجهة نظر الترابط بين التصورات بعضها البعض"(3).

تحفظ العديد من أوراقه الأمريكية في جامعة نوتردام، التي أسست مركز جاك ما ريتان في عام 1957م،وقد استقال من مناصبه الجامعية بدءا من 1960، بعد أن تقدم في العمر وتجاوز السابعة والسبعين.

1- طه عبدالرحمن : الحوار أفقا للفكر ، ص24.

2- ياسمين أحمد برعي: فلسفة الدين والسياسة عند جاك ما ريتان ،رسالة ماجستير،اشراف د/ ظريف مصطفي حسين،كلية الاداب،جامعة الزقازيق ،2010 ،ص59.

3- ÚÈÏÇáÑÍãä ÈÏæí : موسوعة الفلسفة¡ Ñ ÇáäôÊ æÇáäÇÍÉ ááïÑÇÓÇÊ ÇáÚÑÈíÉ ¡ÇáãÄÓÓÉ ¡ÈíÑæÊ 1984¡Õ18.

وسوف تناقش الباحثة في هذا البحث قضية نقد العقل عند طه عبد الرحمن وجاك ماريتان حيث تبرز مكانة العقل في الفكر العربي من خلال طه عبد الرحمن والفكر الغربي من خلال جاك ماريتان .

ان العقل هو ما يتميز به الانسان عن غيره من الكائنات، وترجع أهميته الي كونه أهم ملكة استطاع الانسان من خلالها أن يكون أفكاره ويبني حضارته، ويتكيف مع الظروف التي مر بها خلال العصور ، والعقل هو أداة الانسان في بناء حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن الناحية الفلسفية فالعقل هو : مجموعة من التصورات والمفاهيم التي تشكل ملكة للمعرفة من حيث المنهج، وتكون نسقا قيما يحاول أن يرتقي بالواقع الي مستوي العقل ذاته.

وقيمة العقل كبيرة نبرزها لدي المفكر المغربي طه عبدالرحمن الذي لا يكاد يخلو كتاب من كتابه من ابداع يبدع فيه تصورا للعقل، من أجل تحرير الفلسفة العربية الاسلامية من تبعيتها لعقلانية مغايرة، وأن يجتهد في وضع عقلانية ذاتية تؤهله للإبداع الفكري وتمنحه الحق في الاختلاف الفلسفي، ومحاولة طه عبد الرحمن في نقد العقل الغربي محاولة جريئة وفريدة من نوعها، سلك فيها مسلكا جديدا لم يسبقه إليها أحد فيما نعلم، و لقد بنى نقده للعقل الغربي على منهج ابتكره، مفاده أن أية عقلانية لا بد أن تستوفي ثلاثة معايير، وهكذا قرأ التعاريف التي قدمها كبار الفلاسفة الأوروبيين للعقل على ضوء هذه المعايير، واستخلص أن العقل الغربي يخل إخلالا عظيما بهذه المعايير، لنوضح كيف توصل طه عبد الرحمن لهذه النتيجة. والحضارة الغربية ذات جذور أو مرجعيات ثقافية عربية إسلامية، خصوصاً في ما يتصل بالمنهج العلمي واحترام العقل الذي كما قلنا قبل قليل فتح قلوب وعقول مفكرين غربيين على الإسلام فاعتنقوه بمنهج علمي أيضاً. ونبرز قيمة العقل عند المفكر الفرنسي جاك ما ريتان الذي يقول أن العقل قوة صادقة وأن الوجود هو الهدف الضروري للعقل، وأن التطورات العقلية هي التي تساهم في تطور الانسان، فالإنسان في هذا العصر لا قيمة له بدون العقل التي يساعده في بناء مكانته في المجتمع.

أولاً : تعريف العقل :

أ- لغة: يطلق على المنع والحبس. يقال: اعتقل الرجل، إذا حبس، ومرض فلان، فاعتقل لسانه، إذا امتنع عن الكلام، فلم يقدر عليه، ويقال: أعطني عقولا أشربه، إذا طلب دواء يمسك بطنه، ويقال كذلك: عقلت البعير أعقله عقلا، إذا منعته من الحركة، و بالنظر إلى المعاني اللغوية نجد أن مادة "عقل" وردت بعدة معاني ومنه:

المعنى الأول: العقل نقيض الجهل، يقال عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول، ورجل عاقل وقوم عقلاء وعاقلون، ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل(1).

المعنى الثاني: الحجر والنهي، والجمع عقول، وفي الحديث عن عمرو بن العاص قال: تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء، عقل يعقل عقلا ومعقولا(2).

وقد أورد ابن منظور العديد من المعاني للعقل، ولم يفرق بينه وبين القلب، وقد ورد بنفس هذا المعنى السابق هذا في قاموسٍ آخر: " عقل العقل: الحجر والنهى، ورجل عاقل وعقول ، وقد عقل يعقل عقلا ومعقولا أيضا وهو مصدر، وقال سيبويه: هو صفة(3).

ب- العقل اصطلاحا: هو الأداة التي تميز بها الحق من الباطل والخطأ من الصواب، ويطلق علي اسمي صور العمليات الذهنية عامة وعلي البرهنة والاستدلال خاصة.

وعرف العلماء العقل بتعريفات كثيرة، بعضها يجعل العقل هو الروح، لأن العقل لا إدراك له بلا روح، وبعضهم يجعله هو القلب، لأن محل العقل القلب، وبعضهم يجعله هو الإنسان لأن ما يميز الإنسان عن غيره العقل، وبعضهم يجعله غريزة تعرف بها العلوم، وبعضهم يجعله ذات العلوم

يعرف أرسطو العقل بأنه : أنه ذلك الجزء من الروح، والذي يمتاز بقدرته على المعرفة والفهم؛ أي أنّ العقل من وجهة نظره يعرف ويفهم، وقد اتفق أرسطو كذلك مع الرأي القائل بأن العقل كيان مستقل عن البدن(4).

ثانياً: موقف طه عبدالرحمن:

1- أبو الحسين أحمد ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، بيروت، دار الفكر، ، 1979م، ص70.
2-المرجع السابق، ص72.
3- اسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج العربية ، بيروت، دار العلم، 1987، ص 176.
* سورة البقرة، الآية 44.
* سورة يس، الآية 68.
2- الفارابى: فلسفة أرسطو طاليس ص 68

1- طبيعة العقل:

لقد عمل الفيلسوف المغربي طه عبدالرحمن علي نقد مفهوم العقل نقدا جذريا منهجيا تأصيليا، قصد تجديده وبيان أن الحضارة الحديثة التي قامت علي ما اصطلح علي تسميته بالعقلانية هي حضارة ناقصة، رغم كثرة ما قيل حولها، ووفرة التي أقيمت لها ، فالمتأمل لتشكل مفهوم العقل في فكر الفيلسوف طه عبدالرحمن، يخرج بملاحظة مهمة، وهي أنه سعي في نحت المفهوم منذ أعماله الفلسفية الأولي، فلا يكاد يخلو كتاب من كتبه من ابداع يبدع فيه تصورا تجديديا للعقل، بل ان مفهومه للعقل يزداد قوة من كتاب الي كتاب، والغرض من هذا الابداع هو بالذات تحرير الفلسفة العربية الاسلامية من تبعيتها لعقلانية مغايرة، وجعله يجتهد في وضع عقلانية ذاتية تؤهله للإبداع الفكري، وتمنحه الحق في الاختلاف الفلسفي([1]).

ومن المهم الاشارة في هذا السياق الي أن طه عبدالرحمن في تعامله مع قضية الابداع الفلسفي، يؤسس مفاهيم جديدة، ويخوض فتوحات معرفية في مجال ابداع المصطلح الفلسفي ، وليس غريبا أن يعتبر طه عبدالرحمن أن الفلسفة ابداع للمفاهيم وهو في هذا القول يناظر الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، بل لا يخفي عل كل متتبع أن اهتمامه بالمصطلح الفلسفي كان مبكرا، واضعا له اسم "فقه المصطلح الفلسفي"، ويقصد به النظر في القضايا والاشكالات العلمية التي تتعلق بالمصطلح الفلسفي من جهة وضعه وتحديد مضمونه، وذلك بقصد صياغة بعض الفرضيات والدعاوي، واستخراج بعض الأحكام التي تضبط الممارسة الاصطلاحية في المجال الفلسفي([2]).

ومن هذا الاهتمام الاصطلاحي عند المجدد طه عبدالرحمن مثلا نجد في مؤلفه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام " تمييزا بين عقلانيتين اثنتين علي الأقل هما :العقلانية البرهانية التي تحكم الممارسة العلمية داخل المختبرات والمصانع والمراصد والمؤسسات الأكاديمية، ولا أثر لها في الحياة اليومية، والعقلانية الحجاجية التي تحدد علاقات التعامل اليومي بين الناس([3]).

كما عمل في الكتاب نفسه علي استنباط أصول العمل العقلي عن طريق الاشتغال المنطقي في انتاج المتكلمين الذي وصفه بالخطابة الطبيعية والحوارية الاعتراضية.

---

[1]-طه عبدالرحمن : في فقه المصطلح الفلسفي العربي، مجلة المناظرة، العدد6.

[2]-المرجع نفسه.

[3]-حمو النقاري : المشترك المنسي، دفاتر المدرسة العليا للأساتذة، فبراير2000، الصفحة 47.

ولإدراك هذا الغرض أبطل طه عبدالرحمن فرضيتين عن دعاوي العقل العربي والاسلامي، فرضية الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري التي يري فيها أن العقل العربي عقل بياني لا برهاني(1).

وأن تعامل المسلمين مع النصوص خاصة النص القرآني كان عائقا أمام تقدم العلم، وتوجيه النظر الي الأشياء الخارجية والتأمل في ظواهرها، فضلا علي أن الفكر العربي لا ترقي أدلته الي مستوي البراهين مكتفية بأساليب استدلالية تشبيهية وقياسية بينما نجد موقف طه عبدالرحمن ، وفي تصحيح طه عبدالرحمن المسار الفكري للفلسفة العربية الاسلامية يتوقف في كثير من المناسبات مع مفهوم الفلسفة، فيري أن القول الشائع عنها كونها ممارسة عقلية، وبأنها تخاطب العقل الانساني، وبالتالي قطعها وانفصالها عن كل ما يتجاوز العقل ، ويرجع ذلك الي مفهوم العقل ذاته، فاذا انتهي الكلام فيه الي اكتشاف حدوده وسلم العاقل بتلك الحدود، فالفيلسوف ولو أنه يسلم بهذه الحدود العقلية ، فقد يأبي أن يقف عندها، وأن تحدد من طلبه للحكمة وحبه لها، فيتطلع الي تجاوز تلك الحدود ومعرفة ما وراءها، لأن الحقيقة التي يطلبها هي دائما أمامه وليست بين يديه، ولا هي ملكه، بل هي في أفقه، وينبغي أن يلاحق هذا الأفق بكل ما أوتي من السبل، ويستبدل سبيلا بآخر حتي يقترب شيئا فشيئا الي هذه الحقيقة التي ينشدها، والتي يعلم أنها من وراء الأفق(2).

فالتفكير الفلسفي تفكير يرتبط فيه العقل بالأخلاق، فلا بد من أن تبقي الأفكار مقرونة بالأخلاق حتي تتحقق الفلسفة بمعني الحكمة، وبناء علي هذا يصبح الفعل النظري فعلا خلقيا، فضلا عن أن ما يحدد انسانية الانسان هو الأخلاق وليس العقلانية، ويقول طه عبدالرحمن: " الأخلاقية هي ما يكون به الانسان انسانا، وليست العقلانية كما انغرس في النفوس منذ قرون بعيدة"(3).

والادعاء بأن العقل أو اللوغوس هوا ما يميز الممارسة الفلسفية، بمعني أن القول الفلسفي قول عقلي خالص فهو محض ادعاء لا برهان من العقل يثبته ولا الواقع يؤيده، والأخذ بالعقل وحده يفضي الي وقوع المتفلسف في التجريد والتحريف، لأنه لا واقع محسوسا معه ولا حاضرا ملموسا، فمعلوم أن العبارة ذات طبيعة تواصلية معرفية والاشارة ذات طبيعة تفاعلية وجدانية، والارتقاء من التواصل المعرفي الي التفاعل الوجداني ضروري للحصول علي الابداع(4).

2-الحوار توسيع العقل:

1-محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2009، ص9.
2-طه عبدالرحمن : الحوار أفقا للفكر، ص20.
3-طه عبدالرحمن : سؤال الأخلاق، ص14.
4-طه عبدالرحمن : الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص 90.

اهتم طه عبدالرحمن بأهمية الحوار وبادر في تأليف كتاب سماه(في أصول الحوار وتجديد علم الكلام)، وكانت فئات المجتمع في هذا الوقت لا تتحاور حتي مع نفسها، وبالنسبة اليه فان النظر بدون حوار لا يفتح مدارك العقل ولا يساعد في توسيعه، وبما أن الحوار هو نظر من جانبين، فان العقل الحي الكامل يتقلب بتقلبه حتي يبلغ النهاية في التقلب، علي عكس تقلب العقل من جانب واحد، ومعلوم أن ازدواج الأدلة من الجانبين كثرة لا يمكن العثور عليه في حالة الاجتماع، بحيث تزداد سعة العقل وعمقه درجات كثيرة في حالة الازدواج منها في حالة الاجتماع، فالحوار حياة العقل، والذي يغلق باب الحوار، يميت في نفسه روح العقلانية النافعة، بل انه يميت في نفسه وفي غيره روح الجماعة الصالحة ([1]).

فطه عبدالرحمن لم يرغب أن يذهب في التصور الجوهري والثابت للعقل، بل انه يريد أن يقف عند ما يمكن تسميته بإمكانية العقل المتعدد وهي التي توقف عندها بشكل دقيق في كتاباته، حيث ميز بين عقلانيات ثلاث :" العقلانية المجردة، والعقلانية المسددة، والعقلانية المؤيدة".

3-معايير تعريف العقلانية:

والعقلانية المثالية الناجحة لابد أن تتوافر فيها ثلاثة معايير ([2]).

أ-معيار الفاعلية: والمقصود به جملة الوسائل التي يتخذها الإنسان لتحقيق مقاصده، وهي على العموم تتسم بالتنوع والتعدد والمرونة والتغير بتغير المواقف والظروف المكانية والزمانية ([3]) .

يقول طه عبد الرحمن عن مقتضى هذا المعيار: أن الإنسان يحقق ذاته بواسطة أفعال مجالها متسع ومتنوع؛ ويتجلى تحقق الإنسان بواسطة الأفعال فيما يتخذه من مختلف المواقف التي تتحدد بمجموعها هوية سلوكه، أما معيار التقويم فيقصد به تلك المقاصد ذات الطابع القيمي التي يهفو الإنسان لتحقيقها، وهي على عكس الوسائل تتسم بالثبات والشمول، وبعبارة طه عبد الرحمن مقتضى هذا المعيار أن الإنسان لا يركن إلى ما هو كائن وما هو واقع، بل يسعى دوما أن يكون موجها بقيم معينة تملي عليه ما يجب أن يكون وما يجب أن يقع، ومشدودا إلى معان تعلو بهمته إلى الخروج عن حالة الحاضر وابتغاء أحوال أخرى غيرها([4]).

---

[1]-طه عبدالرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص21.

[2] -طه عبدالرحمن : سؤال الأخلاق، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،2000، ص11.

[3] -طه عبدالرحمن : تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2007،ص34.

[4]- طه عبدالرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، ص44.

ب-معيار التكامل : فمقتضاه أن الإنسان وحدة متكاملة وأي نموذج عقلاني لا بد أن يرعى هذه السمة، فالإنسان لا يقبل التجزيء والتقسيم إلى أشلاء ،إنه ليس مجموعة من الأجزاء التي تقبل إيقاع الانفصال بينها وإيقاف تأثير بعضها في بعض، وإنما هو عبارة عن ذات واحدة تجتمع فيها مظاهر القوة مع مظاهر الضعف وصفات العرفان مع صفات الوجدان ومستويات النظر مع مستويات العمل وقيم الجسم مع قيم الروح فهل التعاريف الغربية للعقل محتوية لهذه المعايير موفية لها؟

يقول أرسطو في تعريف العقل إنه "عبارة عن جوهر قائم بالإنسان يفارق به الحيوان ويستعد به لقبول المعرفة" إن هذا التعريف إذ يعتبر العقل جوهرا، أي ذاتا قائمة بذاتها، فإنه يخل بمعيار الفاعلية، ذلك أن من ملازمات التجوهر الثبات، وهذا ما يسقط عنه سمات التعدد والتنوع والانسجام مع المتغيرات المكانية، وهكذا فالتعريف الأرسطي للعقل يخل بشرط معيار الفاعلية الذي يقتضي كما قلنا التوسل بوسائل مختلفة متعددة ومتنوعة، يقول طه عبد الرحمن:"من حيث معيار الفاعلية، فهذا التعريف يجعل من العقل جوهرا، أي شيئا ينزل منزلة الذات، بينما الصواب أن يكون العقل فعلا من الأفعال وسلوكا من السلوكات، بل أن يكون أدل الأفعال على الفاعلية وعلى أوصافها"([1]).

ومعيار التكامل، فإن هذا التعريف يغفل ربط العقل بمكونات أخرى لا تقل أهمية عن العقل في إطار وحدة تكاملية، إن التعريف الأرسطي للعقل إذ يجوهر العقل فإنه يجزئ الإنسان ويلغي الوحدة والانسجام بين المكونات التي يزخر بها الكيان الإنساني، أو كما يقول طه عبد الرحمن: "إن تخصيص العقل بصفة الذات يجعله منفصلا عن صفات أخرى للعاقل تشارك في تحديد ماهية الإنسان كالعمل والتجربة؛ فلو جاز التسليم بجوهرية العقل على طريقة اليونان، لجاز التسليم بجوهرية العمل وجوهرية التجربة"([2]).

ج-معيار التقويم: فإن التعريف الأرسطي يقترب منه وإن لم يستوفه كاملا، فالتعريف يجعل من العقل مقوما ومقصدا على أساسه يتميز عن الحيوان، غير أن العقل كما تم تصويره في الفكر الغربي قد خرج بحكم الغلو فيه عن حدوده النافعة وانقلب بالضرر على الإنسان، يتبين لنا هذا عندما نتأمل تلك الآراء الفلسفية التي ألهت العقل على سبيل المثال لا الحصر([3]).

وهكذا فالعقل الأرسطي ليس نموذجا مثاليا للعقل يحتذى به ويُجتهد في بلوغ مراتبه، لأنه يخل بمعيار الفاعلية بحكم تنزيل العقل منزلة الجوهر بدل أن يعتبر فعلا من أدل الأفعال على الفاعلية، ولا يستوفي معيار التكامل لأنه لا ينظر إلى القدرات الإنسانية نظرة تستبطن الوحدة والتكامل، بل إن التعريف الأرسطي للعقل يقع

---

[1]-طه عبدالرحمن :سؤال الأخلاق، ص63.
[2]-الموضع نفسه.
[3]- طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق، ص64.

في الفصل والتقسيم، وأما معيار التقويم، فإن التعريف الأرسطي إذ ينظر إلى العقل كماهية تميزه عن الحيوان، أي كقيمة على ضوئها يقيم ما يواجهه من قضايا، فإنه يوفه جزئيا، إلا أنه لم يضبط حدوده حتى انقلب إلى شر وضرر، أما التعريف الديكارتي للعقلانية فمختزل في الإطار المنهجي، يقول ديكارت في تعريفها أنها استخدام المنهج العقلي على الوجه الذي يتحدد في سياق ممارسة العلوم الحديثة، ولا سيما الرياضية منها، ويمكن أن نقول أن هذا التعريف ظل حاضرا في ممارسات العقل الغربي، بل إنه يتنزل منزلة الروح بالنسبة له، من هنا فتقييم هذا التعريف لن يكون مجديا إلا إذا أمعنا النظر في الممارسة الإجرائية للعقل الغربي([1]).

إن المنهج العقلي حسب طه عبد الرحمن لا يستوفي "معيار التقويم"، فإذا كان هذا الأخير يستلزم تحقيق النفع في المقاصد، فإن هذا المنهج يوقعنا في عدة آفات، هي النسبية والاسترقاقية والفوضوية، والمقصود بالنسبية اختلاف القوانين التي يحتكم إليها العقل اختلافا جوهريا كما هو مشاهد في علم المنطق، والمقصود بالاسترقاقية: استرقاق التقنية للإنسان، فإذا كانت الثورة العلمية التي تحققت بفعل تطبيق المنهج العقلي تروم تحرير الإنسان وتحقيق سيطرته على الطبيعة فإنه على العكس من أحلام الإنسان الغربي الزاهية اكتسحت التقنية حياته واستحالت عالما قائما بذاته يملي على الإنسان ويستعبده، ويرى طه عبد الرحمن أن الاسترقاق نتيجة حتمية لمبدأين شائعين في الفكر الغربي، أحدهما لا عقلاني والآخر لا أخلاقي، فالمبدأ اللاعقلاني مفاده أن كل شيء ممكن، وهو ما سيؤدي في آخر المطاف إلى استباحة الآلة للإنسان، و المبدأ اللاأخلاقي أن كل ما كان ممكنا وجب صنعه، وهذا المبدأ يغتال الجانب الأخلاقي في الإنسان لأنه لا يقيم له وزنا مادام كل ما كان ممكنا واجب([2]).

وأما معيار التكامل، فإن النظريات التي يتوصل إليها العقل المجرد لا يكمل بعضها بعضا ولا يركب بعضها فوق بعض مثل الطبقات، بل إن كل نظرية علمية مستحدثة تلغي سابقتها وتهدمها، وهذا ما سماه غاستون باشلار بالقطيعة الإبستمولوجية عند حديثه عن تاريخ العلوم والمسار الذي تتخذه المعارف في تطورها، من هنا فالعقل المجرد لا يركن إلى نموذج علمي متكامل بل لا يفتأ يهدم ما بناه، وهذا من الفوضوية والعبث، إذن فمعيار التقويم غير متحقق في التعريف الديكارتي للعقلاني([3]).

أما معيار الفاعلية، والذي مقتضاه أن يتوسل الإنسان بوسائل نافعة وناجعة، فإن طه عبد الرحمن يرى أن الممارسة العلمية والعقلية في الغرب أخلت به كذلك، بتكلفها للموضوعية وجمودها على الظاهر واتخاذها للوسائط، فهذه الممارسة العقلانية العلمية تزعم أنها لا تسمح بنفاذ القيم الأخلاقية والمعاني الروحية فيها، وهذا

---

[1]-الموضع نفسه.

[2]- طه عبدالرحمن: العمل الديني وتجديد العقل ،المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،1997،ص42.

[3]-طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق، ص64.

الزعم غير صحيح، ذلك أن تحصيل تمام الموضوعية غير ممكن، وكل ما تفعله هذه الممارسة العقلانية هو أنها تستبدل بالمعاني الأخلاقية الدينية معاني و قيما أخرى غير دينية وغير أخلاقية بما فيها الموضوعية نفسها، والمقصود بالجمود على الظواهر تلك الآفة التي أحدثتها المدرسة الوضعية لـ أوكست كونت، حيث دعت إلى غض الطرف عن الماهيات وحصر الاجتهاد العقلي في الظواهر، وهذه حسب طه عبد الرحمن تؤدي إلى التسوية بين الشيء وظاهره، كما تغفل البحث في الأشياء الخفية مثل الروحانيات مثلا، وهي بهذا تضيق واسعا وتحجر على العقل طموحه للترقي إلى مراتب أعلى من خلال إدراك لطائف الأمور التي تسهم بالطبع في توسيع مدارك العقل([1]).

4- أنواع العقلانية:

أ-العقلانية المجردة:

يميز طه عبدالرحمن بين ثلاث مراتب من العقلانية وهي العقلانية المجردة، العقلانية المسددة، العقلانية المؤيدة، وقبل أن ينقد تحدث عن نموذجين أحدهما قديم كان له بالغ الأثر في التراث الاسلامي، وهو التعريف" الأرسطي"، وثانيها لا يقل أثرا في الخطاب الاسلامي والعربي المعاصر، وهو التعريف" الديكارتي".

1-التعريف الأرسطي للعقل:

تعتبر الفلسفة الأرسطية المورد الرئيسي للعقلانية، اذ يعرف أرسطو العقل بقوله:" أعني بالعقل ما تتفكر به النفس وتعقل المعاني([2]).

فالعقل بهذا هو عبارة عن جوهر قائم بالإنسان، يختلف به عن الحيوان، ويستعد به لقبول المعرفة، وفي تعريف أخر يورده عاطف العراقي يقول فيه:" هو قوة النفس التي منها يحصل الانسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية بالفطرة والطبع، أو تحصل له المعرفة الأولي بالمقدمات التي هي مبادئ العلوم النظرية" ([3]).

هذه التعاريف تجعل من العقل عند أرسطو جوهرا أو ذاتا قائمة بالإنسان، أي مكتفيا بذاته ومستغنيا عن غيره، يفارق بها الحيوان، ويستعد بواسطتها لتحصيل المعرفة واليقين، وفق مبادئ العقل الأولية المفطورة في الطبيعة الانسانية، كمبدأ الهوية وعدم التناقض، والثالث المرفوع ، وهي التي تنظم أفعال العقل، وتنسق

---

[1]-المصدر نفسه ، ص65.

1- أرسطو: كتاب النفس، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، راجعه عن اليونانية جورج قنواتي، مكتبة النهضة، القاهرة، 1945،ص108.

[3] - عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية، مصر، دار المعارف،1984،ص80.

المعرفة، وتضمن الصدق في الأحكام والتناسق المنطقي. كما تختص هذه المقدمات بصفة الصدق، والمراد بالكلي ما يصدق علي جميع أفراد النوع الانساني من جهة ما هي كائنات عاقلة، هذه النظرية الأرسطية كان لها الحضور القوي كما يري طه عبدالرحمن في تاريخ الفكر الاسلامي، فإشكالية العقل انتقلت وبثقلها الي الفلسفة الاسلامية التي تبني بعض رموزها ومفكريها النظرية الأرسطية، أي جوهرانية العقل([1]).

فابن سينا يعرف العقل بقوله:" ان هذا الجوهر الذي هو العقل هو جوهر مجرد عن المادة بالذات، وبالعلاقة العقلية، ومن كل جهة" ([2]).

فالعقل كجوهر هو ماهية صورية مجردة عن المادة أصلا، لا بتجريد غيرها عن المادة وعن علائق المادة، بل هي ماهية كلية موجودة، وهو الذي اصطلح أرسطو، والفلسفة المشائية من بعده علي تسميته بالعقل الفعال، وهو عموما المعني نفسه الذي حد به المتكلمون العقل، اذ قال أبو بكر الباقلاني* في حد العقل، كما أورده الغزالي:" انه علم ضروري بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم باستحالة كون الشيء الواحد قديما وحديثا، واستحالة كون الشخص في مكانيين"([3]) .

وفي سياق نقده للعقلانية الأرسطية وكل من أخذ بها ، يري طه عبدالرحمن أن أرسطو جعل من العقل جوهرا قائما بذاته، والحقيقة غير ذلك، فهذا الفهم للعقل لا نجده في نص من النصوص الدينية، وكل ما نجده هو أن العقل فعل من الأفعال التي يقوم بها الانسان، ولا فرق بينه وبين باقي الملكات الأخرى، يقول:" ان العقل يدخل في باقي الأفعال الانسانية فمثلا، المبصر يبصر وهو يعقل في بصره، والسامع يسمع وهو يعقل في سمعه، والعامل يعمل وهو عاقل في عمله وما دام العقل فعلا من الأفعال، وسلوكا من السلوكيات التي يطلع بها الانسان علي الأشياء في نفسه وفي أفقه "([4]) .

قال تعالي : "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولاكن تعمي القلوب التي في الصدور" *.

---

[1]- المرجع نفسه، ص2.

[2]-ابن سينا: في أحوال النفس، تحقيق محمد فؤاد الأهواني، مصر، دار احياء الكتب العربية، 1952،ص112.

[3]- أبو حامد الغزالي: معيار العلم في المنطق، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1990،ص276.

[4]-طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق، ص65.

وقوله (ص):"ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"([1]).

بناء علي هذا، يكون العقل فعل من أفعال القلب أي الفؤاد، فكما أن للسمع أداته الحاملة وهي الأذان، وللبصر أداته الحاملة وهي العين، فان للعقل أداته الحاملة وهي القلب، والقلب قوة لا تبقي علي حال، حيث انه دائم التحول والتقلب، واذا ما كان الحامل متقلبا ومتحولا من حال الي حال ، فشأن المحمول أن يتبعه في تقلبه وتحوله، وهو العقل أي الفعل([2]).

كما أن تخصيص العقل بصفة الذاتية أو الجوهرية، يجعله منفصلا عن صفات أخري للعاقل تشارك في تحديد ماهية الانسان، كالعمل والتجربة، ثم ان جواز التسليم بجوهرية العقل علي الطريقة اليونانية الأرسطية، يقتضي منطقيا جواز التسليم بجوهرية العمل وجوهرية التجربة، فيكون العمل هو الاخر ذاتا قائمة بالإنسان أيضا، وهذا القول بتعددية الذوات يقسم الظاهرة الانسانية الي جهات متباينة ومتضادة احيانا، لا تعالق بينها ولا ارتباط، ويتجاهل حقيقة وحدة الانسان في تكامل أوصافها وتداخل أفعالها ([3]).

وكبديل لمفهوم العقل، يطرح طه عبدالرحمن مفهوم الفعل أو العمل كمبدأ لتحديد ماهية الانسان، ومن المعلوم أن الفعل لم يرتبط بشيء قدر ارتباطه بالأخلاق، فيتحدد تبعا لهذا أن التخلق يكون قابلا للتعقل، وعلي هذا الأساس تكون الأخلاقية هي الأصل الذي تتفرع عليه كل صفات الانسان من حيث هو كذلك، والعقلانية التي تنسب اليه يجب أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي([4]).

2- التعريف الديكارتي للعقل:

اقترنت العقلانية في العصر الحديث باسم ديكارت حتي كانت التسمية العقلانية الديكارتية، والتي كانت لها مكانة نوعية في تاريخ الفلسفة، والعصب لها كان كبيرا في العصر الحديث والمعاصر، وقد ارتبطت العقلانية عند ديكارت بالمنهج الذي يعرفه في المقال بقوله:" انه مجموعة من القواعد مؤكدة وبسيطة اذ راعاها الانسان

---

* سورة الحج،الاية46

[1]- صحيح البخاري.

[2] -طه عبدالرحمن: اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،1998،ص21

[3]-طه عبدالرحمن : اللسان والميزان، ص40.

[4]-المصدر نفسه ،ص65.

مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صوابا ما بعده خطأ، واستطاع بدون أن ينفذ قواه في جهود ضائعة، بل بزيادة علمه زيادة مطردة أن يصل بعقله الي اليقين في جميع ما يستطيع معرفته"([1]).

ويؤكد ديكارت أن العقل واحد عند جميع الناس، وأنه أعدل قسمة طبيعية بين البشر، وفي الوقت نفسه هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا اناسا ويميزنا، وما منشأ تباين الآراء سوي تباين الطرق في استخدام العقل، فإمكان معرفة الحقيقة بواسطة العقل من دون مساعد اخر كما يري ديكارت، يؤكد قدرات الانسان اللامحدودة، فالعقل بهذه يرفض من حيث طبيعته الاعتراف بأي سلطة أخري غير سلطته، اذ أنه يوجب أن يكون هو الحكم الأعلي، وهو في الوقت نفسه النور الطبيعي الذي يضيء طريق الانسان، بل أكثر من ذلك، فان جميع مسائل العلم والرياضيات والحياة العلمية قابلة للحل عن طريق النور الطبيعي للعقل، متبعا نسقه الطبيعي الخاص ([2]).

وفي سياق نقده للعقلانية الديكارتية، يرجع طه عبدالرحمن الي الوظيفة والعملية التي يقوم بها القلب، وهي ربط الأشياء بعضها ببعض، أي أنه يقوم علاقات بين الأشياء، الا أن هذا الربط اختلف بين اليونان والغرب اليوم، فاليونانيون سلموا بربطية العقل علي أساس أن هذه الربطية تشمل الكون كله ، في حين أن الغرب الحداثي ينظر الي العقل علي أنه ربط أيضا، ولكنه ربط بين وسائل وغايات ، وهذا الربط اجرائي وهو ما يسمونه بالعقل الأداتي، فالعقلانية الأداتية قائمة علي مبدأ أنه لا بد من ايجاد الوسيلة المناسبة للغاية، حتي ان هذه الغاية بدورها تتحول الي وسيلة لغاية أخري([3]).

فالمنهج العقلي العلمي محدود النفع في المقاصد والوسائل، فالثورة العلمية الكبرى في عصر النهضة وما بعدها أكدت ضرورة دراسة الطبيعة دراسة عصرية، وهي الدراسة الوحيدة التي أدت الي تطور علمي منتظم وشامل، خلافا للأساليب التي تقدم بها الأقدمون في ميدان فلسفة الطبيعة، بعيدا عن التصورات الأيديولوجية، الا أن التوسل بهذا المبدأ في فهم ظواهر الطبيعة لم يحقق شرط النجاعة، لأنه أفرغ كل القيم والمعاني الأخلاقية بحجة قطع الطريق أمام الذاتية باسم الملاحظة المباشرة([4]).

وبهذا فان المنهج العقلي والعلمي الذي ارتكزت عليه الحداثة العقلية، لا يستند الي مفاهيم انسانية أخلاقية تحترم كرامة الانسان وتصون قيمته، وفي هذا يري عبدالوهاب المسيري أن المفهوم العلمي والتكنولوجي للتقدم، الذي تتبناه الحداثة الغربية انما هو مفهوم مادي محض للتقدم يطغي علي أي جانب من الجوانب

---

[1]- المصدر نفسه، ص66.

[2]-الموضع نفسه.

[3]-طه عبدالرحمن : العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997،ص45.

[4]-المصدر نفسه : ص46.

الانسانية للتقدم، ولا يعترف بها الا كجوانب ثانوية أو كجوانب ذاتية تخص الأفراد كلا علي حدة، أو كلا علي هواه ومعاييره الذاتية الخاصة به واحده دون غيره([1]).

وتبعا لعدم وفاء العقلانية الحداثية عموما والديكارتية خصوصا، بالنفع في المقاصد، ويري طه عبدالرحمن أن هذه لن تتحقق الا في ظل العقلانية الاسلامية الايمانية، فالتصور الاسلامي له ربط اجرائي من نوع اخر مختلف تماما، حيث انه يربط بين الوسيلة والقيمة ، فيربط الأسباب بالقيم، لأنه في هذا التصور سترفع القيمة الوسيلة الي مستوي فوق المادي، حتي ولو كانت الوسيلة مادية فهي تحقق دائما معني مثاليا .

فالعقلانية الاسلامية الايمانية تقتضي اختيار القيمة التي يحصل اليقين في نفعها، واختيار الوسيلة التي يحصل اليقين في نجاعتها، والوحي الذي نزل هو الذي يمد الانسان بهذا اليقين، ولو تتبعنا فكرة طه عبدالرحمن في فحصه واقع الفلسفة الغربية الخالصة، لفهمنا دعوته بلزوم تكسير طوق العقل وتفادي العقلنة([2]).

ان الحداثة الغربية بهذا قد أفرطت في تقدير العقل واعتباره، وفي تقويم امكاناته وقدراته، وفي وضعه مكان فوق مكانته، والافراط كنتيجة لذلك في تقدير العقلانية كمذهب ينظر من خلاله الي العالم، وتفسر بموجبه الأحداث والوقائع والعلاقات في الواقع الفكري الثقافي الأخلاقي الاجتماعي، حتي صار أهم ما يميز الفكر الغربي في أقوي لحظات تماهيه مع الحداثة، هو ارادة الانتقال من الدور المحدد لعملية العقلنة الي فكرة المجتمع العقلاني الأكثر شمولا، والذي لا يقوم العقل فيه بتوجيه النشاط العلمي والتقني فحسب، ولكن أيضا يوجه حكم البشر وارادة الأشياء، وهذا ما أدي بالتأكيد الي التفريط في الحقيقة الخفية، التي تأتي من مصادر أخري غير العقل ، خصوصا تلك التي مصدرها الدين والايمان([3]).

والنقد الذي قدمه طه عبدالرحمن للحداثة الغربية وعقلانيتها، ليس فريدا أو استثناء، وانما هو نقد تعود أصوله الي منبت العقلانية الحداثية، وتحديدا عند كانط والذي قام بنقد هذا العقل البشري، الذي فاق الفكر الغربي في تقديره واعتباره، أو نقد" قدرة هذا العقل بوجه عام فيما يتعلق بكل المعارف التي يطمح اليها مستقلا عن كل تجربة، وتبعا لذلك حل مسألة إمكان- أو عدم إمكان- قيام ميتافيزيقا بوجه عام، وتحديد مصادرها ومداها وحدودها"([4]).

---

[1]-عبدالوهاب المسيري : دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة،2006، ص37.

[2]- المرجع نفسه : ص38.

[3]-الان تورين: نقد الحداثة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،1997،ص30.

[4]-عبدالرحمن بدوي: ايمانويل كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977،ص162.

يقول طه عبدالرحمن في هذا المجال:" فالعقل المجرد هو بالذات العقل الذي يخلو من اليقين في نفع المقاصد التي اختارها، وبالأولي من اليقين في نجوع الوسائل التي اتخذها، ولا نستغرب اذ ذاك ينقلب بالضرر علي الانسان، إن كان قليلا أو كثير(1).

ب- العقلانية غير المجردة وتنقسم الي قسمين:

1-العقلانية المسددة والمقاصد النافعة:

بعدما فرغ طه عبدالرحمن من فحصه الحداثة الغربية وعقلانيتها المجردة، ببيان مفاسدها وحدودها، في كونه لا تفي بالمقاصد الكلية ولا بالغايات التكاملية للإنسان، مظهرا الالتباسات التي غشيت أعمال دعاة العقلانية والمحدثين وما أفرزته من أزمات، ومن أجل تخليص الفكر العربي والاسلامي من الورطة التي أوقعته فيها العقلانية الحداثية الفاسدة، نجده يقترح نسقا عقليا أوسع لتجاوز النسق الحداثي الضيق، ومرتبة أرقي من العقلانية المجردة اصطلح علي تسميتها: العقلانية المسددة، والتي تمثل البديل الممكن لمعالجة مشكلة حدود العقل المجرد، أي هي عملية اكمال لهذا العقل، ويتم هذا من خلال الربط بين النظر المجرد وبين العمل علي مقتضي الشرع(2).

يقول طه عبدالرحمن في هذا الباب: " ولما كان العقل المجرد، بفضل تنزيله علي العمل وتوجيهه علي مقتضاه، يأخذ في ترك وصفع العقلاني الأصلي ليتجه الي الاتصاف بوصف عقلاني أفضل وأعقل" ، ويعرف القول المسدد بقوله: "ان العقل المسدد عبارة عن الفعل الذي يبتغ به صاحبه جلب منفعة أو دفع مضرة، متوسلا في ذلك بإقامة الأعمال التي فرضها الشرع(3).

وبالتأمل في هذا المفهوم نستجلي المقصد الذي حدده طه عبدالرحمن وهو مقصد خلقي، أي اعادة ربط القول أو العقل بالعمل في حقل المعرفة، وقيمة الأفكار- خصوصا الفلسفية منها- تكون أكثر فاعلية اذ تلبس بها صاحبها في سلوكه بمقتضي الشرع، أي مهتديا في قوله وفكره وعمله بالمقاصد التي حددها الشرع في ثباتها وشموليتها وفي جلبها للنفع ودفعها للضرر، فالعقل المسدد هو اذا العقل الذي اهتدي الي معرفة المقاصد النافعة(4).

1-طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق،ص69.
2- طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق، ص70.
3-طه عبدالرحمن : العمل الديني وتجديد العقل ، ص53.
4- المصدر نفسه : ص56.

هذا يعني أن صاحب العقل المسدد قد حصل اليقين في القيم، ولكنه لم يحصل اليقين في نفع هذه القيم ولا في نجاعة الوسائل، فيبقي هناك تفاوت، ولكنه مسدد لاختياره تلك القيم في نفعها كما حصل اليقين في نجاعة الوسائل التي توصله الي هذه القيم، ولا يمكن للعقل أن يهتدي الي المقاصد النافعة الا اذا كان علي صفة التخلق التي تلقي في فهمه ما يبصره بهذه القيم العليا، ولهذا ، فان دعوة طه عبدالرحمن هي الشروع في بناء حضارة جديدة لا يكون السلطان فيها ل "اللوغوس"، وانما يكون فيها ل "الايتوس" أي الخلق، بحيث تتحدد فيها حقيقة الانسان لا بعقله ولا بقوله، وانما بخلقه أو فعله([1]).

ويؤكد طه عبدالرحمن أن فقه الفلسفة الية معرفية، نقرأ من خلالها الفلسفة وموضوعاتها المعرفية المتعددة، فالفلسفة ليست قولا فقط، وانما قول مقرون بالفعل، وخطاب مقرون بالسلوك، وهذا ما قصده من عبارة" العقلانية الفلسفية عقلانية اتساعية"، فان الفلسفة لا تتوسل بالعقل فحسب، بل تتخذه موضوعا تنظر فيه، حتي كانت من التعاريف التي وضعت لها أنها علم العقل، ولما كان هذا النظر هو نفسه لا يفارق الرجوع الي العقل، فيكون أحري بالفلسفة أن يقال فيها انها العمل بالعقل، من أن يقال فيها انها العلم بالعقل، بناء علي أنه لا عمل بغير علم، وأن العلم قد يكون بغير عمل([2]).

ولقد حدد طه عبدالرحمن ثلاثة شروط أساسية يجب توافرها في العقل المسدد حتي يكون محل اعتبار، وهي:

أ- موافقة الشرع : لا يمكن أن يقع التسديد في الفعل ما لم يحصل التوافق مع الشرع، يقول طه عبدالرحمن في هذا المجال: " والحق كل الحق أن المرء لو أتي من العمل ما أتي، ودر ولا عبرة بمنافعه حتي ينظر كيف هو أمر الله ونهيه وحفظ أحكام الشرع الاسلامي([3]).

ب- اجتلاب المنفعة: وقوامها مختلف المعاني والحكم التي من أجلها نزل الشرع، أو التي لا يمكن تحصيلها في غيره من المقاصد، ويقول طه عبدالرحمن في هذا الباب:" ان المنفعة الناتجة عن العمل الشرعي غير المنفعة، فهذه الأخيرة واقعة لا محالة في النقائص، ولو تحري فيها المرء ما تحري، واتخذ من المثل الشرعية ما اتخذ([4]).

---

[1]-طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق،ص72.

[2]-طه عبدالرحمن: فقه الفلسفة، الفلسفة والترجمة ، ص173.

[3]-طه عبدالرحمن: العمل الديني وتجديد العقل ، ص61.

[4]- الموضع نفسه.

وهذا ما قصده الشاطبي في تأكيده أن كل عمل متبع فيه الهوي من غير التفات الي الأمر والنهي أو التخيير فهو باطل بإطلاق، لأنه لا بد من حامل يحمل عليه، وداع يدعو اليه، فاذا لم يكن لتلبية مطلب الشارع في ذلك مدخل الي مقتضي الهوي والشهوة، وما كان ذلك فهو باطل بإطلاق(1).

ج- الدخول في الاشتغال: وهو قوام العقل المسدد في مقابل النظر في العقل المجرد، أي الاستغراق في العمل واتيانه علي وفق مقتضي الحكمة منه وعلي وفق ما يؤول اليه في المستقبل، فالعبرة ليست بالأفكار المجردة وانما هي بالنتائج العملية التي تلازم هذا الاشتغال، ويقول طه عبدالرحمن في هذا الباب:" حد الاشتغال بوجه عام هو الخروج من وصف النظر الي وصف العمل، ومعلوم أن مفهوم الاشتغال قد هم القدامى كما هم المحدثين، ولكنه حظي عند هؤلاء مكانة متميزة حتي أصبح المعيار الذي يفزع اليه في كل شيء، وتواردت علي هذا المفهوم أسماء مختلفة، مثل: العمل، الشغل، النشاط، التطبيق، الفعالية، الانتاجية، التقنية، وبالأخص الممارسة، وينقلب مفهوم الانسان بذلك من كونه كائنا حيا عاقلا في العقلانية المجردة الي كائن حي عامل في العقلانية المسددة(2).

يظهر مما تقدم أن العقل المسدد هو عقل مجرد وقد دخله العمل الشرعي، أي أنه خرج من أوصاف التجريد النظري، ولبس أوصاف التسديد العملي، غير أن العقل المبني علي التسديد حتي وان حصل لديه ادراك الوسائل الناجحة، وبالتالي يكون عرضة لآفات مختلفة يحددها طه عبدالرحمن في افتين هما:

أ- افة التظاهر: وتترتب علي التفاوت بين ظاهر الفعل وحقيقة القصد منه وما ينجم عن هذا من ضرر، كأن يأتي الفاعل فعله ليس من باب التقرب الي الله، وانما من باب التكلف، وما يترتب عليه من عناء وحرج من جهة، والوقوع في الضرر من جهة ثانية، أو من باب التزلف بغرض استرضاء الناس والتقرب اليهم طلبا لخفي المنفعة من رضاهم، أو من باب التصرف واشراك النفس في الأفعال الي حد العجب والغرور والاعتداء بالنفس، وهذا ما يقطع عنه معرفة الله وافراده بالعبادة(3).

ب- افة التقليد: وتترتب علي عمل المشتغل أو القرباني بقول أو بعمل الغير من دون تحصيل دليل يثبت فائدة هذا القول أو العمل، أي القيام بالعمل علي شاكلة أقوال وأعمال الغير من دون تمحيص فائدتها العملية

1- الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، شرح عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1996،ص173.
2- طه عبدالرحمن: العمل الديني وتجديد العقل ، ص62.
3- المصدر نفسه، ص79.

والتأكد من نجاعتها، وهذا ما يضر بعمل القرباني ويحرمه التقرب الي الله ويلقي به في الضلالة والهلاك، والتقليد عن طه عبدالرحمن أشكال ودرجات، سواء من باب الاتفاق، أو العادة، أو النظر(1).

2- العقلانية المؤيدة والوسائل الناجحة:

علي الرغم من علو منزلة العقل المسدد وشرف مرتبته علي العقل المجرد، وقدرته علي قهر حدود هذا العقل، فإن الكثير من الآفات التي يمكن أن تعلق به من شأنها أن تنقص من كماله، وتقطع صلته بالشرع، لأن شرط العقل المسدد هو مجرد دخول العقل في الاشتغال الشرعي، وليس النزول بمراتبه، ولذا اجتهدت الممارسة الشرعية الاسلامية في الخروج من افات العقل المسدد الخلقية والعملية والدخول في مرتبة أعلي وأفضل يورثها العمل الشرعي، وهذا في الاشتغال اصطلح عليها طه عبدالرحمن باسم العقل المؤيد، والذي يمكن المتقرب من تحصيل التجربة الحية بمعانيها الروحية، وإقامة باقي أعماله علي هذه التجربة الفياضة، فالعقل المؤيد هو : "العقل الذي اهتدي الي تحصيل الوسائل الناجحة فضلا علي تحصيل المقاصد النافعة"(2).

فالعقلانية المؤيدة تسلم بوصل العقل بالفعل، وعدم انفصال المعرفة بالله عن العلم بالأشياء ، وتؤمن بعدم انفكاك الزيادة في المعرفة عن الفائدة، وهي المرتبة الأسمى من العقلانية التي تمكن صاحبها من تلقي الخطاب القرآني بمعانيه الروحية، وليس برسومه اللفظية، وكأن المتقرب في ترقية الي مرتبة العقل المؤيد غايته تدارك الآفات الخلقية والعلمية التي ورثتها كل من العقلانيتين المجردة وبالخصوص المسددة، فالذين اقتصروا علي أبنية العقل المجرد في المعرفة لم يزدهم اقتصارهم هذا الا اعراضا عن المعرفة بالله والاشتغال علي مقتضي شرعه، وقطعوا علي أنفسهم سبل بلوغ المعرفة الغيبية تارة بحجة الموضوعية العلمية، وتارة أخري بحجة استقلال المعرفة العلمية (3).

وأما الذين اقتصروا علي العقل المسدد، حتي وان حصل لديهم الاجماع بأن التوسل بالعلوم النقلية موصل الي معرفة الله أو معينا علي ذلك، فإنه لم يحصل لديهم الإجماع علي مستوي العلوم العقلية، لانفكاكها عن معرفة الله، وفي هذا يقول طه عبدالرحمن:" فكل العلوم نقلية كانت أم عقلية يجب أن تكون خادمة للحقيقة الغيبية، وكل مشتغل بهذا العلم أو ذاك لابد أن يصل الي إدراك جانب منها، وأن يستزيد التقرب اليها، وإلا كان علمه غير خادم للمقصود الشرعي منه، وكان لا يستحق أن يوصف بوصف العلم النافع"(4).

فالمتقرب المترقي الي مرتبة العقلانية المؤيدة، من واجبه العمل والمزاولة عليه والاستزادة منه حتي يكون مفتاحا من مفاتيح الاهتداء الي طريق الله، من غير الخروج عن المقاصد الروحية التي جاء من أجلها

1- المصدر نفسه، ص82.
2-طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق،ص84.
3-طه عبدالرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، ص150.
4- المصدر نفسه : ص151.

الشرع، والدخول في ما فيه احتمال الضرر، يقول طه عبدالرحمن في هذا المجال:" يجب أن تكون الممارسة العقلية متسعا للاستزادة الدائمة من غير خروج الي ما فيه احتمال الضرر، فكل معرفة عقلية كاملة تكون مفتوحة الافاق، ومتسعة الرحاب، بحيث لا يخشي علي الزيادة فيها والبقاء علي هذه الزيادة من أن تحيد بها عن جادة المعقول، أو تسيء الي المتقرب بها بوجه من الوجوه"([1]).

وبهذا فالعقل المؤيد لا يقوم علي مجرد اعتقاد اعتيادي باطني وتصديق وجداني وإقرار لفظي، وإنما هو بالأساس اعتقاد حي يقيني يصدقه العمل، وقول يحققه الفعل والإيمان الحي الذي لا يوجد إلا مع العمل، هذا الفرق يوضح كيف أن الجهد الارتقائي الذي يبذله المؤمن، لا يقاس في حجمه بالجهد الاعتيادي الذي يبدل المعتقد المؤمن، اذ أن المؤمن يتحرك بكلية قواه ما بطن منها وما ظهر، طالبا الأفعال التي يوجبها التعلق بأشرف القيم الروحية والعملية، التي تورث الصلاح عاجلا في الحال واجلا في المال، واذا كان العقل المؤيد عبارة عن ذلك الفعل الذي يطلب به صاحبه معرفة أعيان الأشياء عن طريق النزول في مراتب الاشتغال الشرعي، مؤيدا النوافل زيادة علي إقامة الفرائض علي الوجه الأكمل، فإن التوسل هو قوام هذا العقل وجوهر العلاقة العبدية بين العبد وربه، والتي تكشف عن غني الرب وافتقار العبد، وهذا أمر يقتضي أن يتوسل العبد الفقير الي الرب الغني بالأقوال الطيبة والأعمال الصالحة، كي ينجو ويظفر بما يحب ويرغب([2]).

يقول عز وجل:" يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون"*.

ويقول سبحانه:" أولئك الذين يدعون يبتغون الي ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محظورا"*.

ويقول صلي الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالي:" ما تقرب الي عبدي بشيء أحب الي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتي أحبه"([3]) ، فالمتقرب الي الله يؤمن بأن الله عز وجل يحب من الأعمال أصلحها ومن الأفعال والأقوال أطيبها، ومن هنا فقد حث سبحانه وتعالي علي التقرب والتوسل اليه، والتودد منه بأسمائه الحسني وصفاته العلي،

---

[1]-الموضع نفسه.

1- طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق ،ص88.

* سورة المائدة، الاية35

* سورة الاسراء، الاية57

[3]-رواه الشيخان في صحيحهما.

وبالإيمان به وبرسوله، وبمحبته تعالي وبرسله والصالحين، وبالفرائض الواجبة، والنوافل المستحبة، وبترك المحرمات، واجتناب المنهيات، لأن الله طيب لا يحب الا العمل الطيب([1]).

وخلاصة القول ان العقلانية ليست مرتبة واحدة ولا درجة واحدة، وانما هي مراتب ودرجات متفاضلة تعكس وبشكل واضح الفعالية العقلية للانسان وقدرته علي الانتقال من فعل عقلي الي اخر يفوقه قيمة معرفية، فالعقل المجرد الذي يمكن أن نسمي صاحبه علي حد اصطلاح طه عبدالرحمن بالمقارب وتلازمه حدوده، وتنطوي أبنيته علي افات تمنعه من تحقيق مقاصد لا يقين في نفعها بوسائل لا يقين في نجوعها. أما العقل المسدد، والذي يمكن أن نسمي صاحبه بالقرباني حتي وان كان يسعي الي ترك وصفع العقلاني الأصلي ليتجه الي الاتصاف بوصف عقلاني أفضل ، فهو عقل يسدده العمل، وهو أيضا لم يكن بمنأي عن افات تحاصره وتمنعه من تحقيق المعرفة الكاملة، كونه يسعي الي تحقيق مقاصد نافعة بوسائل لا يقين في نجاعتها([2]).

أما العقل المؤيد والذي يمكن أن نسمي صاحبه بالمقرب، فهو يمثل أعلي المراتب من الفاعلية العاقلة، لنزول صاحبه منازل متغلغلة في الاشتغال الشرعي، وفي الوقت نفسه يسدد منافذ الآفات الخلقية والعلمية، ويفك طوق الحدود الاسرة التي تقع فيها الممارستين العقليتين المجردة والمسددة، وبالتالي فعقلانية المقرب هي أكمل العقلانيات، كونها القادرة علي الجمع بين نفع المقاصد ونجاعة الوسائل، أي فوائد عقلانية المقارب وفضائل عقلانية القرباني، وفي الوقت نفسه هي العقلانية الأجدر لتحصيل المعرفة الأكمل والأشمل، والجمع بين العقل والتوجهات الغيبية، فالعقل الكامل ما كان مفضيا الي القرب من حضرة الله، ولا قرب واصل بغير عقل كامل([3]).

ثالثاً : موقف جاك ما ريتان:

1- طبيعة العقل:

فالعقل عنده: قوة صادقة، والوجود هو الهدف الضروري والفوري للعقل، وهناك نتيجة طبيعية للحقيقة الأساسية نعني بالمعقول أن يعرفه العقل، لكن لتأكيد أن الوجود هو الهدف الضروري والفوري للعقل، وأن العقل يكتسب المعرفة الحقيقة، يرقي الي القول بأن الوجود علي هذا النحو مفهوم هو القول بأن الوضوح يصاحب الوجود، بحيث يكون كل شيء مفهوما بالتناسب الدقيق مع كيانه، فاننا نعني أنه مفهوم في حد ذاته

[1]-طه عبدالرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، ص151.
[2]- طه عبدالرحمن: سؤال الأخلاق، ص89.
[3]- المصدر نفسه، ص90.

للعقل، وليس مفهوما لنا، بالنسبة لعقلنا، اذا في الواقع نتيجة للطبيعة البشرية، فان عقلنا غير متناسب مع كائن يفوقه لأنه متفوق علي الانسان، فان هذا الكائن علي الرغم من أنه في حد ذاته أكثر وضوحا، سيكون أقل وضوحا بالنسبة لنا، هذا علي أي حال هو الحال مع جميع الطبيعة الروحية بالكامل،وساهمت التطوات العقلية في تطور وعي الانسان وحريته، ومكانته الفريدة في الكون، فالانسان في هذا العصر هو القيمة الكبري التي تفوق كل القيم ([1]).

والعقل الحديث حسبما يراه ما ريتان قد ابتلته مجموعة من الأمراض لا شفاء منها، وهو بذلك يتفق مع كثيرين من نقاد الحداثة علي تحميل المسؤولية للعقل في كل ما وصلنا اليه من كوارث، رغم اختلاف المنطلقات الفكرية لدي كل منهم، فالمنطلق الماريتاني ديني ولاهوتي، أما المنطلقات الأخري فتتسم حتي في نقدها للعقل الحديث بالمعايير العقلانية([2]).

ويرصد ما ريتان أمراض العقل الحديث التي أوصلتنا الي الأزمات الحضارية الراهنة فيجد أنها تتمثل فيما يلي:

أولا: ثقة العقل المفرطة بنفسه، والاستغناء عن معرفة العلة الأولي(الله)، والحقائق غير المادية، اضافة الي زيادة النزعة الشكية.

ثانيا: انكار العقل للمتجاوز الدنيوي واعتباره شيئا مستحيلا، وكذلك انكاره لفكرة النعمة الالهية([3]) .

ثالثا: ايمان العقل بالتصورات الخاطئة عن خيرية الطبيعة البشرية، وهو ما ترتب عليه مطالبة الانسان بالاكتفاء الذاتي والاستقلال المطلق في تشكيل التاريخ والمجتمع والحضارة.

وتحدث جاك ماريتان عن العقل من خلال ديكارت:

أما تعريف (العقل) عند ديكارت: هو قوّة الإصابة في الحكم، والقدرة على تمييز الحق من الباطل، وهي قدرة يتساوى جميع الناس بها. وينعكس زعم ديكارت بأن الكثير من أفكارنا منفصلة عن التجربة الحسِّية في ادعائه بأن العقل يمكن تصوره باعتباره كاملًا تمامًا حتى إذا كان يفتقر لملكة الإدراك الحسي، وبحسب نظريته عن طبيعة العقل، فإن القدرات الوحيدة التي يجب أن يمتلكها العقل هي قدرات فكرية بحتة، والقدرة على

[1] -Jacques Maritain, St. Thomas Aquinas, op. cit, p:18.
[2] - Jacques Maritain .Thomas Aquinas.p:19.
[3] - ibid .p:19 - 91.

ممارسة الإرادة المطلوبة في إصدار الأحكام. ولا توجد أية قدرات إضافية مطلوبة لاستيعاب أغلب العناصر العامة للفيزياء، والنظرية ترى العقل ضمنًا مالكًا للقدرات الضرورية لاستيعاب علم تجريدي للمادة([1]).

إن الروابط التي تصل ما بين نظرية الأفكار ونظرية المادة العقلية والفيزياء ليست دومًا في مؤلفات ديكارت، فمزاعمه عن العقل ومحتوياته يمكن حصرها حصرًا وافيًا في كتابه (تأملات في الفلسفة الأولى) حيث أرسى مبادئ الفيزياء خلسة. ففي (تأملات في الفلسفة الأولى) يزعم ديكارت أنه بصدد وضع نظرية للروح، لا نظرية للقدرات العقلية والأفكار التي تجعلنا نتواصل مع جوهر المادة. وكنظرية للروح؛ أي لما يحرك البشر، فإن ما يطرحه في(تأملات في الفلسفة الأول) يشوبه قدر من الاعتباطية. فمن الواضح أن الزعم بأن الروح هي شيء يحس ويتخيل بشكل عارض فقط، لكنه بضرورة الحال ذكاء متناه، زعم اعتباطي، ولم تخف هذه الاعتباطية على أصحاب "الاعتراضات" (والتي وضعت هي وردود ديكارت عليها كملحق لكتاب (تأملات في الفلسفة الأولى)، فقد طلبوا من ديكارت تبرير نظرته لقدرات الإحساس والتخيل، بل ولأية قدرة تفترض وجود جسد باعتبارها غير ضرورية، فما كانوا يستفسرون عنه هو التمايز الشديد بين العقل والجسد الذي اشتهر لاحقًا باسم "الازدواجية الديكارتية"([2]).

يستشهد أحيانًا المعلقون على ديكارت بالتأمل الثاني باعتباره مصدرًا لما يميز حقًّا فلسفة العقل الديكارتية، وفيها يعلن ديكارت أنه شيء مفكر بالفطرة. وفيها أيضًا يشرح أنه «بالتفكير» يعني أية عملية يقوم بها العقل لا مجال للشك في أنها حقيقية من جانب صاحب العقل. واستنادًا إلى التأمل الثاني، فيمكن تعريف كل ما هو عقلي بشكل أساسي بأنه كل ما هو غير قابل للشك في حقيقته وبأنه مدرك مباشرةً من جانب النفس. ومن سبل إيجاز هذه الفلسفة القول بأن الخصوصية في فلسفة ديكارت هي العلامة المميزة لكل ما هو عقلي، ولا يتوافق هذا التفسير مع أجزاء لاحقة من «تأملات في الفلسفة الأولى» على النحو الذي يتوافق فيه مع الأجزاء السابقة منه، والأدهى أنه يصور فلسفة ديكارت عن العقل كمنتج ثانوي للشك المنهجي، حتى إنه يكاد لا يجد ما يدعمه إذا ما ثبت أن هذا الشك المنهجي يفتقر إلى الاتساق أو إذا أسيئ تصوره. ولكن هناك تفسيرًا آخر محتملًا يقيم ركائز النظرية على نحو مستقل بشكل أفضل، ويعطيها دورًا محوريًّا في كتاب "تأملات في الفلسفة الأولى" ككل([3]).

---

[1]- ديكارت: مقدمة قصيرة جدا، جامعة اكسفورد، 1995، ص28.

[2]- ديكارت: مقدمة قصيرة جدا ، ص30.

[3]-المرجع نفسه، ص45.

الخاتمة

من خلال ما سبق من عرض وتحليل يتبين أن الدكتور طه عبد الرحمن مفهوم العقلانية عنده يعتمد أولا على رفض اعتبار العقل شيئا مستقلا، باعتبار ذلك مفهوما تجزيئيا للإنسان.

فالعقل هو فاعلية للإنسان ككل وليس كيانا مستقلا فاعلا. ثم يعتمد ثانيا على الربط بين الفاعلية النظرية المجردة (العقل النظري) وبين الشعور الذاتي الداخلي (القلب)، تطبيقا لعدم الفصل التام بين الذات والموضوع. وثالثا، على تقسيم الفاعلية العقلية إلى ثلاث مستويات أساسية، هي التجريد، والعمل، واليقين ، ويقابلها ثلاثة مفاهيم للعقل "العقل المجرد"، "العقل المسدد"، "العقل المؤيد"، فعلى هذا، لا يعدو العقل أن يكون فعلا من الأفعال أو سلوكا من السلوكيات التي يطلع بها الإنسان على الأشياء في نفسه وفي أفقه، مثله في ذلك مثل البصر بالنسبة للمبصرات، فالبصر ليس جوهرا مستقلا بنفسه، وإنما هو فعل معلول للعين، فكذلك العقل هو فعل معلول لذات حقيقية، وهذه الذات هي التي تميز بها الإنسان في نطاق الممارسة الفكرية الإسلامية العربية، ألا وهي "القلب"، فالعقل للقلب كالبصر للعين.

وأما جاك ما ريتان فالعقل عنده قد أعلي الفكر الحداثي من شأنه وجعله أعدل الأشياء قسمة بين الناس علي حد تعبير ديكارت، وذلك علي عكس التصورات التي كانت في العصور الوسطي ، والتي كان العقل فيها خادما للاهوت، وارتبط تطور العقل بتطور المناهج الحديثة، وبالعلم يكشف لنا أشياء جديدة لم نكن نعرفها من قبل وفيها تحقيق لأهداف وسعادة الإنسان.